

النساج لجديد

شخصية مي شخصية جذابة جبت من المتناقضات وكانت كالحياة ، «مشكلة المشاكل» التي حاولت عبثاً ان تحملها . كانت خليطاً غريباً ، يمازج فيها النور الظلام ولايزيله ، جاءت الى هذا الوجود ، ومثلها جاء جبران ، في عصر لم يكن مستعداً بعد لاستقبالها ، فغريبة جاءت وغريبة رحلت .

ثارت على الحياة فعدت ضحية الحياة ، وثارت على التقاليد فوعدت صرعي امام حصونها المنيعه . ونالت اكثر مما تمت ، بيد انها ظلت ظمأى لم يورد غليلها ما حظيت به لأنها ما وصلت الى قمة حتى اعتبرتها نقطة انطلاق جديدة الى قمة اعلى منها تعد العدة لاقتحامها فلا تبلغها حتى ترى انها لا تزال في اول الطريق ، وان المحجة لا تزال نائية ، وبلوغها عسير .

وافق جميل جبر ميّاً في مختلف اطوار حياتها ، فارانا اياها طالبة كنيية لا تعرف سبب كآبتها ، « انيسة العشرة ، رضية الخلق ، حادة الذكاء ، ولكنها سريعة التأثر عزيزة النفس ، تعيش في الواقع مرة ، ومرات في غمرة الاحلام .

وانتقل معها الى مصر ، مصوراً بدقة تطوراتها النفسية ، وقد قويت شخصيتها وازدادت ثورتها « تأبى الخضوع وتبغض الانضباط . . . وترغب ان تترك اثرآ منها حينما حلت » ، لا تستقر على حال ، فتمقت اليوم ما اشتتهه بالأمس ؛ ويدفعها جبهها للمعرفة الى المطالعة فتكتب على « آثار اخوانها بالتمرد والحيرة والقلق » ثم تشق لها طريقاً الى الشهرة بين كبار مفكري مصر وادباؤها ورجالها ، فيصبح « اسمها على كل شفة في اوساط القاهرة الثقافية . وتظل غير راضية ، دائمة القلق والحيرة فتلجأ الى عدوبة الموسيقى ، او الى اظلال لبنان الرطبة وتظل كنيية ، والكآبة ، كما تقول هي : « خاتمة شعور الانسان إزاء الجمال والقباحة ، والخير والشر . . . »

وتتعرف الى جبران من خلال كتبه فتنشأ بينهما وبينه مراسلات دامت ما دام في قيد الحياة ، وتفصح « حلقة ادبية » يرثاها رجال الفكر في مصر ، فتصبح الندوة الادبية الأولى في الشرق ، وتحمل مع هدى شعراوي لواء النضال في سبيل تحرير المرأة العربية ، حياة مفعمة جداً ونشاطاً وانتاجاً قيباً ،



فأضاعت ، على طريق رغائبها ، كنز شبابها النضر ، ولما عادت الى نفسها حوالي سن الأربعين ، لم تجد امانيهها ، ولم تجد شبابها . . . ولعل ذلك قد كان لأن ميّاً لم تراع حقوق الطبيعة ، فانتمت منها الطبيعة شر انتقام .

وها هو الحريف الكئييب ، وها هي الهموم والمصائب تتوالى : ابن ابوها وامها ، ابن صرّوف واسماعيل وولي الدين ؟ بل ابن جبران رفيق روحها . . . وها هي تعتزل الحياة وتعيش ، بعد اسفار وتنقلات بين انكلترا وإيطاليا وغيرها « عيشة النساء بين احلامها المريضة وتصوّراتها الغريبة » ، ثم تنتابها ثورات من الجنون فتدخل « العصفورية » وتخرج منها الى المستشفى ثم تتركه لتعود الى عزلتها في بيروت ثم في القاهرة حيث تلاقى حنقها وحيدة غريبه .

هذه هي حياة مي المضطربة كما رسمها لنا جميل جبر في كتابه الاخير . وقد اودعه من التحليل النفسي الدقيق ما لم نعهده قبل ذلك في أدب السير العربي ، وهو في كل ما كتب لم ينهل الأخبار إلا من ينابيعها ، فيعود الى مؤلفات مي واعترافاتها ، وإلى شهادات من عرفها فيستقصي منهم الخبر الصحيح عنها ، واذا ما استنتج وعلّل ، فانما يفعل ذلك بالاستناد الى الواقع . وكان يخشى ان يقوده الموضوع الشذوذ الخيالي ، فظل اميناً على الحقيقة ، حريصاً على الا يخرج عن سبيل التأريخ ، وظهر في كتابه مؤرخاً ترشح الى ما يسرده عليك من وقائع ، ومحللاً لبقاً تغلغل الى اعماق شخصية مي المعقدة المضطربة فأظهر فيها مواطن العظمة دون ان يسهو عن مواطن الضعف فيها . وقد كنا نود لو انه عرض للأدبية والكتابة والمفكرة بقدر ما عرض للمرأة ولو انه تناول آراءها بالتحليل والنقد ، كما تناول شخصيتها . ولعله لم يفعل ذلك في كتابه هذا ليخصص له سفرآ مستقلاً يتحفنا به في مستقبل نتمنى ان يكون قريباً .

خليل الجور



اشياء صغيرة

مجموعة قصص للآنسة سميرة عزام

دار العلم للملايين ، بيروت - ٩٦ ص

ينهض فنّ الآنسة سميرة عزام ، في هذه المجموعة القصصية ، على قوة الابداع في خلق الجو النفسي . وتبلغ المؤلفة ، في عدد من الأقصيص ، درجةً رفيعةً في التحليل تشهد بان موهبتها القصصية عظيمة الامكانيات .

ففي اقصوصة «الاشياء الصغيرة» مثلاً ، تبدو الحركة النفسية شديدة الغنى بما تنطوي عليه من لفتات ولمسات . وهي قصة فتاة يكمن في قلبها حسٌّ عاطفيٌّ مرهف ، ولكنه مكبوت محروم ؛ حتى اذا اتحت له اليقظة استشعرت صاحبته مذاقاً جديداً للحياة ونكهة لم تعرفها من قبل . وليس هذا الذي تحسه الفتاة مشاعر واضحة صافية ، بل هي أحاسيس هينة غامضة ، فيها التلق والرضى جميعاً : لقاء عابر في سيارة ، وجلسة في سينا ، ودفع نظرة ، وتلامس كفين ، وافترار بسمه بحميمة ، ووقع اقدام على الحشائش ، وتجاذب شفاه رفيقة : دنيا من الأعماق تضطرم في روح حثّانة . وإن الفتاة لتتساءل بعد : هل ذهبت بعيداً ، هي التي كانت حياتها خالية ، فبدأت تدفأ وتشقّ حياتها دوماً جديداً هيزاً بمواضعات الناس ؟

ومثل هذا الجو النفسي تخلقه ايضاً اقصوصة « في المفكرة » التي تصوّر - بتوتر مرهف - شعوراً غامراً بالوحدة والوحشة والحرمان العاطفي ؛ وهذا الشعور يتجلّس في عددٍ من علامات الاستفهام تخطّتها البطلة في مفكرة اشترتها اول العام ، وظلت هذه العلامات تحنّ ابدأ الى الجواب . وينفق العام ، فتدير ايامه في ذهنها ، فاذا هو يوم واحد متشابه كئيب ، يزيد جهوماً صميرجل تعمل عنده ، وهو لا يتحرك كأنما هو لا يعيش . ولكن نفحة من انسانية تشعّ تلك الليلة في عيني الرجل ، فيدعوها الى سهرة العام الجديد ، وفي ضميره انه قد ينجح في حملها على ان تخطّ شيئاً فشيئاً في المفكرة . هنا تنتهي القصة ، ولكن ما توجيه لن ينتهي . إن المفكرة ستنبض دون ريب بجرعة جديدة ، ستمحي علامات الاستفهام منها واحدة واحدة ، وستمليء صفحاتها رويداً بكلمات اثيرة واعدة .

على ان اقصيص اخرى تتميز بنزعة انسانية واضحة كـ « بائع صحف » و « نافخ الدواليب » وأولاهما أقرب الى ان تكون صورة ، لا قصة ، والثانية تثير قضية الظلم الاجتماعي وكيف يواجهه المظلومون إثارة هبّنة لا تفسدها المناقشة ،

ولذلك نراها تخلّف لدى القارئ ، جواً من التفكير والتأمل . وتلبس هذه النزعة الانسانية في « امومة خيرة » و « ماما » إحساس الامومة الغامر ، خاصّة كل انثى ؛ وإن المؤلفة لتدرك في تصوير نزعات الامومة غاية بعيدة ، يرفدها في ذلك اسلوبٌ حيّ مشرق فيه اختيار وصناعة ، ولا أقول تضنّع ، وعصبية وموسيقية . ولكن البناء التركيبي لهذه القصة الاخيرة « ماما » يشكو ضعفاً واضحاً : فهي قصة في رسالة يبعث بها رجلٌ الى زوجته التي آثر ان يطلّقها حين عجز عن ان يقدم لها ولدأ سليماً ، ثم سافر الى الخارج ثلاث سنوات حتى تزوجت ، وهذا ما كان يود ان يتجه لها ، رغبةً منه في ان تستجيب لنداء الامومة في ذاتها ؛ وقد رزقت المرأة ولدأ ، فأرسل هو حينها بالطفل الذي غلبه « بكلة منغومة » . ومنشأ الضعف في القصة ان الزوج يروي لزوجته السابقة حكايتها كلها بتفاصيلها الوافية ، مع ان الزوجة تعرف هذه الحكاية ولا حاجة بها اليها ، وهذا ما يشعر القارئ بالتضنّع في تركيب القصة . وقد كانت خيراً للآنسة عزام ان تجعل الزوج يرسل هذه الرسالة - مثلاً - الى صديق له يسأل عن سرّ سفره الى الخارج ، فيروي له القصة بهذه التفاصيل . اما اللون المحلي ، فان المؤلفة تنجح في إبرازه في بعض اقصيص هذه المجموعة ، ولا سيما في « الى حين » التي تصوّر مسلك عمّتين عانسيتين تجاه عاطفة جديدة شدّت ابنة اخيهما الى ابن الجيران . والمحلية ظاهرة في التفكير والتعبير جميعاً ، واحسب ان هذه القصة متأثرة بأقصيص مارون عبود . على ان هذا اللون يمتنع حين تقصر الكتابة فنّها على تصوير آلي سريع ، كما في قصتي « الشيخ مبروك » و « زواج العمّة » وقصاري ما فيها طرفة أو نكتة تثيران الابتسام .

بقيت لنا ملاحظة اخيرة ، تظفر الى الذهن بعد استعراض الجو العام لهذه الأقصيص ، وهي ان القارئ لا يكاد يجد شيئاً من وحي المجتمع النسائي العربي الذي تنتمي اليه المؤلفة . ونحن لا نقول ذلك بسبب من رغبتنا في تمييز الجنسين بالمجتمع ، ولكننا نحسب ان الآنسة عزام ، وهي القصاصة الموهوبة ، أقدر من الرجال على تصوير الاجواء النسائية ، ونسألها ان تنخرط في جو « الفتاة » العربية ، وما تلاقيه في هذا الجو من مشكلات اجتماعية هي خير مادة للقصة العربية المعاصرة ، فضلاً عن انها ، إذ تعرض هذه المشكلات ، بالاطار الفني طبعاً ، فانما تُلحّ على الناس الحلول لها ، وبذلك يشارك الادب في خلق المجتمع العربي الأفضل ، وهذه هي اليوم غايتنا الكبرى .

سهيل ادريس

« الحكي اللاتيني » أيضاً...

اثارت رواية « الحكي اللاتيني » اهتماماً كبيراً في الاوساط الادبية لم تشهد مثله الا الآثار التي سجّلت نقطة تحوّل جديدة في تطوّر ادبنا العربي الحديث . وقد تناول الرواية حتى الآن - ولما تمّض على صدورها ثلاثة اشهر - زهاء عشرين كاتباً من مختلف الاقطار العربية كانت آراء معظمهم في صالحها . غير ان بعض الكتاب لم يفهموا الرواية أو لم يجحدوا فيها الا الجانب الجنسي . وقد هالهم الحديث عن مثل هذا الجانب ، فوجدوا في ذلك خروجاً على مبدأ الالتزام الذي تأخذ به « الآداب » ورئيس تحريرها ، مؤلف « الحكي اللاتيني » . ونحن نعتقد ان ثورة هؤلاء على الرواية ، وهم نفرٌ قليل ، هي ثورة لا شعورية على ما في نفوسهم من حياة جنسية يسودها الصراع بين المحافظة والتحرر ، فكأن الرواية كانت بمثابة مثير لأضطراب يودّون ان يتابعوا ابداً كبتة في نفوسهم ، وافتضح لمشكلة نفسية يجبّون دائماً ان يطمسوها ، وهذا ما يدعوه علماء النفس بـ Projection . وهذه الظاهرة ، في رأينا ، هي اكبر دليل على صدق الحاجة الى مثل هذه الرواية التي تنصح بالدرجة الاولى عن مخاوف الشباب العربي ازاء المشكلة الجنسية واساءتهم لفهمها . ونحن نؤمن بان معالجة هذه القضية ، وقد حاولت « الحكي اللاتيني » معالجتها ، من صميم رسالتنا الالتزامية .

هذا وقد نشرتم « الآداب » في العدد السابق مقالين في نقد الرواية بقلم الاستاذين يوسف الشاروني واحمد كمال زكي . ووردتها هذا الشهر عدة مقالات في الثناء على الرواية او في تجريحها ، فلم يكن لها بدٌّ من ان تختار مقالين اولهما بقلم الاستاذ عبد الله عبد الدائم ، استاذ التربية وعلم النفس في الجامعة السورية ، وثانيهما بقلم الاستاذ عيسى الناعوري ، صاحب الزميلة « القلم الجديد » المحتجبة . وسيرى القراء ان احدهما يكاد يناقض الآخر مناقضة تامة في فهمه لرواية « الحكي اللاتيني » ، ونحن نترك للقراء مناقشة الرأيين جميعاً .

« الآداب »

كلها تصهر وتزول في حرارة ما تفضي به الحياة التي يمرون عنها ، وانها لا تعود وسائل واساليب مستقلة لقل مماني الحياة وهماستها ، وانما تغدو جزءاً منها ونتائج عادية طبيعية تتأثني طائفة لمن اتصل بهذه المماني وامتنص تلك الهمسات . او ليس هذا الشعور هو الذي يراودنا مثلاً عندما نقرأ روايات لدوستوفسكي وتولستوي وشكسبير وغيرهم من اصحاب التجارب الانسانية العميقة ؟

ومن هنا كانت الروايات التي يتحدث فيها المؤلفون عن انفسهم وحياتهم الخاصة اقوى ما يكتبون في اكثر الاحيان . فهم في مثل هذه الروايات ينقلون تجربة حقيقية عانوها بسائر اعصابهم ، وهم بهذا ينقلون لنا جزءاً من الحياة الحقيقية ، الحياة العامرة - انهم فيها يصلون الى مقام الكشف ، الكشف عن الحياة ، بل الى مقام الاتحاد بها ، ان اردنا ان ننبئ بعض تعابير المتصوفة . فهم قد صارعوا وارفقوا في معارج الوصول ، وعرفوا طعمها الحقيقية ؛ وما عليهم بمد ذلك إلا أن ينشروا بضاعتهم هذه في امانة وبساطة ويسر . وهذا هو مصدر القوة التي تجدها في كتاب

مثل « كتاب صديقي » لأناطول فرانس ، أو « اعترافات فتى العصر » لموسيه ، أو « الاعترافات » للقديس اوغسطين ، أو « الأيام » لطف حسين ،

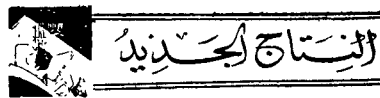
مقال الأستاذ عبدالله عبدالدائم

« عندما أحدثك عن نفسي أحدثك عن نفسك ، وغير رشيد من ظن انني لست أنت » .
كلنا يذكر هذا البيت الذي رد به « فيكتور هوغو » مزاعم الادباء الكلاسيكيين ، وعلى رأسهم

« بوالو » Boileau مشرّع الشعر الكلاسيكي . وكلنا يذكر الصراع الذي ساقه معهم في مقدمته الشهيرة لرواية « كرومويل » ميبنا خاصة تهافت المبدأ الذي استقوه من « مونتيني » Montaigne ، وهو قوله « إن حديث الكاتب عن نفسه حديث منفر » .

والحق ان نساءً من فورة الحياة يجري في كل واحد منا ، وهذا النسخ اذا عرفنا الكشف عنه واستجلاءه ، استطعنا ان ننقل الى الآخرين دفقة الحياة ومعناها ، وان نطلعهم على ما في نفوسهم منها . والكاتب البارح هو من عاش جانباً من هذا النسخ عيشاً عميقاً ، حتى اقتضه وكشف أمره لنفسه وللآخرين . والذي يشعر به القارئ لكبار المؤلفات ، ان اصحابها قد رأوا وابتصروا : رأوا الحياة إذ عانوها ، وجرت فيهم بسيرة هينة ، وسالت

من كتاباتهم عفواً ودون ما عنت . إنه يشعر ان لسان الحياة هو الذي ينطق بلسانهم ، وانهم لا يمدون ان يكونوا ناقين امانة لما يلهمه ذلك اللسان ويوحيه ، بل يشعر ان اللفاظ والسبك والفن الروائي تكاد



أو « قدر يلهو » لشكيب الجابري ، أو « الحى اللاتيني » لسهيل لإدريس . إن شيئاً واحداً تتطلبه الحياة من الانسان لتخلص له وتمنحه عطاياها ، هو أن يصدق في معرفتها ، وألا يتحدث عن جوانب منها لم يعرفها ولم يعانها . وأي حديث عن أي جانب عرفه المرء حقاً حديث ينتقل سريعاً إلى نفوس السامعين أو القارئين ، ويجدون فيه أحاسيسهم وذواتهم . بل أي معرفة لجانب صغير من الحياة ، إذا كانت معرفة عميقة حقاً ، لا بد أن توصل صاحبها إلى الإطلاع منها على بعض الجوانب الأخرى ، بل لا بد أن توصل صاحبها إلى أن يضع يده على قلب مشكلة الوجود وجوهره ، وعند ذلك يصل في كتابته وفكره إلى شأو لا يتخذه إلاه التحليل المنطقي ، ويصيب من الحقائق ما لا يعمه هو تماماً ، إذ تكون الحياة هاديه ومحركه . ومن هنا نرى كثيراً من الفنانين والمؤلفين الكبار يجهلون هم انفسهم ما تحتويه مؤلفاتهم من معاني وأجسواء .

ولسنا نزع ان كتاب « الحى اللاتيني » قد بلغ هذا الشأو تماماً ، غير اننا نجد فيه محاولة جديده للتسير في هذه السبيل ، وخطوة كبرى نحو بلوغ هذه الرتبة . إن فيه تجربة ، وإن صاحبها لم يرد ان يجدها الا عما جربه وعاناه حقاً ، وجرب أن ينقل اليها أحاسيسه وانطباعاته دون ما تورية ، ودون ما تشذيب ، ووصف هذه الاحاسيس بالتفاهة حيث ينبغي ، وحمل عليها حيث يجب ، وصدق معها ومع نفسه في أكثر الأحيان ..

فهو شاب عربي لم ينكر مجتمعه مدعياً ، ككثيرين غيره ، ان في وسعه يسر أن يلبس ثوب الغرب ويقتمه تياره دون ما توجس وخيفة . ولم ينكر ما خافه هذا المجتمع فيه من زواجب الحرمان الجنسي والقلق والحفاظة والخوف من الجهول ، بل الخوف من الذات .. إنه لم ينكر أنه ، ككل شاب عربي مخلص ، ما يزال يتلصق ذاته بوجوده ، ويبحث حائراً عن نواته ورسالته .. ولم يدع انه وصل الى معرفة هذا الوجود وتلك الرسالة ، ولو ادعى لأنكرنا عليه ذلك .. إنه ككل عربي يعيش في المرحلة الحالية من تاريخنا ، يفتقد وجوده الأصيل ويشعر ان ثمة شيئاً ، ثمة رسالة ومثلاً أعلى ، تضي له من بعيد وتومض ، ويقبض عليها في بعض لحاته ولمعات نفسه ، ولكنها ما تلبث حتى تفر من قبضته ، مختلفة وراها سراباً . إنه واحد من ذلك الجيل المذنب والقلق الذي يشكو الحيرة ، ولم يستقر بعد على قيم حقيقية توجه حياته وترشد سبيل سلوكه . ولكنه ليس ، كبعض هذا الجيل ، ممن استخذى واستسلم وضاع مع حيرته ؛ وانما هو ، كطليمة واعية منه ، يحاول ان يعرف ويصل ويبحث ، ويرى الامور بين الملمم صاحب الرسالة ، وان كانت رسالته غير واضحة المعالم بعد . والحق ، ان الامم تعرف في بعض اطوار حياتها مراحل يكون فيها القلق الباحث عن حل هو وحده الموقف الصادق الصحيح ، ويكون فيها ادعاء الوصول الى حل وطعاً تينسة كذباً وزيفاً أو موافقاً ومسكنة . ومثل هذه المرحلة هي التي تعرفها بلادنا اليوم ... ومثل ذلك الموقف القلق هو الذي يفقه المؤلف في روايته .

ويتجلى هذا القلق الباحث لدى المؤلف عن طريق اتصاله بالغرب . انه يريد ان يفهم من نفسه الى عالم يعتقد ان فيه شفاء أو صوابه ... ويتساءل هل هو بالغ هذه الغاية ... ويسأل ما هو الشفاء الذي سيلقاه ، وما هو الدواء الذي يفهم منه ويتلصق له الدواء ؟ والحق ، انه لا يعطي جواباً على هذين الأمرين في روايته ، فهو لا يعرف الدواء . وهذا وجه من اوجه القلق التي يعيشها الشاب العربي في بلادنا ؛ إنه يفتقد شيئاً لا يعرفه تماماً ، ويشكو المأ لا يبين موضعه . وخطأ ان نقول ان الدواء الذي يشكو منه بطل الرواية هو الحرمان الجنسي ... نعم انه يصرح لنا في بداية الرواية بأنه يتبعي المرأة

في رحلته الجديدة الى الغرب ، ولكن من واجبتنا ان ندرك من سياق حديثه ان هذه الناحية جزء من قلق عام لا يعرف ان يصنه ، لم يتضح له فيه غير هذا الجانب . أفلا يفهم المزمع في بعض الأحيان الى الحلول الجنسية حين لا يعرف حلاً آخر ؟ أوليست التجربة الجنسية مفتاح التعرف على النفس وخبر اغوار الذات ؟ انها لدى المؤلف وسيلة يتلصق عن طريقها ذاته ويحجز بها وجوده ليشعر به ويعرفه . أفلا يشعر المؤلف انه منعقد الهوية في كثير من الأحيان ، « يعجزه ان يرسم لنفسه صورة متميزة الأبعاد واضحة المعالم » ص ٤ ؟ أفلا يتمثل كيانه « شيئاً فارغاً يعوزه الامتلاء والكثافة ، صدفة جوفاء لمقاة على رمل شاطيء ، عوداً فارغاً من القش تتقاذفه ، بلا هواده ، مياه نهر صاخب » ص ٤ ؟ إنه ليحدثنا في بعض اجزاء روايته كيف يحاول ان يفهم من هذه الفيضانية الوجودية عن طريق المرأة ؛ ويصف لنا حاله عندما طلبت اليه رفيقة صديقه ، بعد ان ودعاه في المطار وامتلطت السيارة معاً ان يقدم لها سيكارة ؛ ويحدثنا في كثير من البراعة عن شعوره بشخصيته وكيانه على اثر هذا الطاب التافه ، بعد الحيرة والجهل والاحجام :

« وسقط كل الخوف والهيبة والتردد والاضطراب ، سقطت كلها عن كاهله . بل هو بدأ يشعر انه يدوسها كلها بقدمه . اكان حقاً بحاجة الى ان تطلب منه امرأة سيكارة او ان تقترح عليه دخول مقهى ، حتى يشعر بشخصه ، حتى يشعر بأنه انسان حي ، انسان حر ؟ يتخيل اليه الآن ، بل هو موفن ، انه مالك منذ هذه اللحظة زمام الموقف ، وانه منتصر على جميع الظروف التي سيواجهها » ص ٤ .

أفلا نجد في هذا تعبيراً عن حقيقة يعرفها كل انسان ويعرفها الانسان العربي خاصة ، وهي انه يبدأ بالتعرف على وجوده عن طريق المرأة ، وانها وسيلة لتحطيم كثير من خجله واضطرابه وغيرها من الصفات التي لا تكشف الا عن خرق في ادراك معنى الحياة ؟ أفلا يتخلص مثل هذا الشاب من « عمر » نفسه وتناقضها وارتابها ، عن طريق مثل هذه التجربة ؟

إن المؤلف ليرجع في وصف اثر هذا « الكاشف » ، نفي المرأة ، في تفتيح نفسه واعادة الثقة اليها والقوة ؛ وبين لنا خير بيان كيف اطل من هذه التجربة ، تجربة المرأة ، على آفاق كثيرة في الحياة . بل كيف نقلته الى ما قد يبدو نقيضها ، نفي الفكرة القومية ، والحق ان المرأة كانت له اولاً وآخراً وسيلة للكشف عن ذاته ورسالته وحياته في امته ... انها وسيلة ولم تكن غاية ... انها وسيلة لتفتيح نفسه وإغنائها وسبر غورها والتأكد منها ، وانها وسيلة بعد ذلك الى اثاره قلق مبدع ومشكلات جديدة لها صلة بقلب حياته القومية .

انه اذ تفتحت نفسه ، تفتح لحياته ومشكلات بلاده . وهو إذ غدا انساناً سويلاً لا يلجمه الجهل بالمرأة ويشوهه ، يبحث ككل انسان سوي عن سر وجوده ومعنى رسالته وغاية مطافه . بل ان مشاعر الصداقة نفسها قد ادهفت لديه وغدت ذات لون خاص عن طريق هذه التجربة :

« كان على يقين من ان صداقته لصبحي ستصبح صداقة صحيحة خالصة يوم يلتقي مثله بفتاة تطلق مشاعره الحليسة من عقالمها وترد احاسيسه الى موضعها الطبيعي من قلبه وروحه » ص ٧٢

وكل من عرف شيئاً عن قوانين الحياة النفسية ، يفهم تمام الفهم معنى هذه التجربة وصلتها بأعمق معاني الحياة الاجتماعية والقومية .. اولم يذهب بعض الباحثين الى القول بأن التجربة الجنسية تصل المرء بمنبع الوجود وجوهره ؟ وان نحن آثرنا الا نذهب هذا المذهب البعيد ، فلن نستطيع ان ننكر ان محبة الانسانية ومحبة الحياة القومية والاجتماعية تنأى غالباً للذين ارضوا

نفوسهم أولاً واشبعوها . ولولا قلة يعرفون ان يخلقوا من الحرمان رياً ، ومن الكبت تصميماً وإبداعاً ، ومن النار برداً ، لجلنا هذا القول عاماً شاملاً . ويزيد في القيمة الاجتماعية لهذه التجربة لدى المؤلف انه لا يقبل عليها منطلقاً من رواسب مجتمعه ، بل يقتحمها وهو محمل بروح هذا المجتمع كلها وتقاليده ، مثقل بنظرات أمه وأقاربه . وهو ههنا أيضاً يلمس جانباً حياً من تجارب الفرد العربي ، اذ يصف لنا الصراع الباطني الذي يقوم في نفسه بين جانبين يتجازبانه : جانب يدعو الى أن يمينا حياة حرة مليئة بالانطلاق من اسر التقاليد ، وجانب يشده الى مجتمعه وتقاليده وعاداته . وما نظن شاباً عربياً لم يعرف هذا التمزق والصراع . وليست قيمة هذا التمزق في الواقع في انه صراع بين جيبين ، كما يصفونه ، ونزاع بين عقليتين : بل قيمته في انه صراع بين نزعتين كائنتين في اعماق الفرد الواحد . فالفرد الواحد من جيلنا الجديد يملك هذين التيارين في قرارة نفسه ، يشدانه ويتنازعانه ، مها يدتغ . وهو اذ يصارع لا يصارع محافظة غيره بتحرره هو ، وانما يصارع محافظته هو بتحرره هو ايضاً... ان في نفسه ازدواجاً : فهو متحرر اعتمق حدود التحرر احياناً ، ولكنه في الوقت نفسه محافظ كأقوى ما تكون المحافظة ... بل إن تحرره العنيف الذي يظهر صاحباً احياناً ، ما هو إلا تمويه يوم نفسه عن طريقه انه حر منطلق من اسار المحافظة . أليست بعض الاندفاعات العنيفة التي تبدى احياناً بمظهر الشجاعة والجرأة ، تعبيراً عن جبن وخوف؟ أليست بعض الشجاعة ، كما يقولون ، فراراً الى امام؟ او ليست فن إخفاء الخوف ايضاً؟ انها حقاً مشكلة الشاب العربي تلك المشكلة التي يتابعها المؤلف في الرواية ، مشكلة هذا الصراع بين المحافظة والتحرر الحائزين معاً في قرارات النفوس ، وفي قرارات اكثرها ادعاء للمحافظة او ادعاء للتحرر . واقسى المشاعر هي المشاعر المزدوجة المعنى ، واقدر الانفصالات على اقامة الاضطراب في قلب الحياة النفسية هي تلك التي تحتوي في آن واحد على حدين وقيمتين . أفلا تأتي قسوة عقدة « أوديب » مثلاً ، التي يحدثنا عنها علماء التحليل النفسي ، من هذا الازدواج فيها ومن اشتغالها على عنصر البغضاء والمحبة معاً لشخص واحد هو احد الابوين؟ ومثلها عاطفة الحسد والغيرة وكثير من المواطف الانسانية . وهكذا نرى المؤلف يحدثنا عن ذلك الشعور بالإنتم والحطية الذي يراد الفرد في مجتمعه عندما يقدم على تجربة جنسية ، وعن القلق الذي يعتره حيالها . انه حين اغلق الباب خلف المرأة الاولى التي اتصل بها « ارسل زفرة طويلة » ، وكان « يشعر بضيق لا يدرك له تمليل الا أنه غير راض عن نفسه . وعصفت به الحيرة ، فلم يدرك ما الذي ينبغي ان يفعله الآن ... » ص ٦٤ . وهكذا نراه يحاول ، بنزعة العربي وروحه ، ان يرقى من هذه التجربة الجسدية الى تجربة تترج فيها الروح بالجسد ، ليلقى التعبير « العربي » ، ان شئنا ، مثل هذه التجارب . « أليس هو فتى من الشرق العربي ؟ انها رواسب اجيال طويلة من الحرمان والكبت والخوف من المرأة تشده الى ماضيه وتقاليده » ص ٩٨ ولذلك يعرف « جانين » ويجب « روحها عبر جسدها ، وجسدها عبر روحها » ص ٢٢٥ . ويجب فيها طهرها وتجربتها الفاشلة مع خطيبها وفرارها من اهلها وأهلها الذي تمضغه في داخلها ؛ ويروقه هذا الوضع الحاسر الذي تجره معها ، كأنما يريد ان يظهر امام نفسه بمظهر المنقذ المضحي ، وكأنما يريد ان يمنح تجربته الجديدة هذه معنى روحياً فيه عمق المثل العليا التي تراوده :

« وهل تنوي ان تتخذ من شخص جانين مطهراً تتحلل فيه من اوزارك ، وتنفذ عنده آثامك ؟ اتدري حقاً لماذا تجبها ان كنت حقاً تجبها ؟ اشفقة وعطفاً على تلك الفتاة التي حطمتها مأساتها الغرامية ؟ ام اعجاباً بهذه الفتاة اللامعة ذكاه وحساً وبعبيرة ؟ »
اجل ، انه يبحث فيها ايضاً عن ذلك المجهول ، مجهول الشاب العربي القلق

التواق الى القيم الروحية ، الذي يأبى ان يرى في الأشياء حماة المادة ورجس الطين ... انه تواق الى اقتطاف معانٍ غير معاني الجسد وغير معاني اللذة ... انه يريد ان يرى وجوده في مرآة هذه الفتاة ، وان يعرف واجبه الاجتماعي من خلال متعة الفردية . ولهذا يمنح صديقه « فؤاد » قيمة خاصة ما تتي تنمو وتشتد ، إذ يحاول هذا الصديق ان يجعل لديه هذا الربط بين تجربة الفرد وتجربة الجماعة ، بين متعة الحلوة ومتعة النفس التواقة الى المثل الأعلى القومي ، ويشعره بان « حياته ينبغي ان تضطلع بتبئة وتحمل مسؤولية وتسمى الى غاية » ص ١٤١ ، ويؤكد عنده فكرة القصد والنية في كل شيء ، مبيناً له ما تبينه الفلسفات الحديثة من ان وجود المرء لا يتحقق إلا ضمن مسؤولية وغاية ، جاعلاً من مسؤولية العمل القومي القصد الأول والموجه الكبير الذي يهب للحياة معنى وللسلوك مفتاحاً واعياً . انه يحاول ان يخرج من « بحر ان وجوده » ، وان يلقي في نفسه تلك الجسدة التي تضطرم بها اعماقه ، « فتلقي على نظراته الى الحياة ضوءاً هادياً يربط الاحداث فيما بينها ، ويتوجه نحو غاية واحدة وهي ... خدمة القضية القومية في بلاد العروبة كلها » ص ١٦٤ .

ولكن رحلته هذه في سبيل الوصول الى الطمأنينة وإيجاد الحل لبحرانه ، تخفق كما تخفق كثير من رحلات الشباب العربي في طريق البحث عن الرسالة المرجوة منهم . فهو ما يلبث في كثير من الأحيان ، حين يفارق صديقه « فؤاد » ان « يعاوده الشعور بالوم والظفر ... وان يلمس بيديه هذا الفراغ الذي يستخفه ... » بل ما يلبث ان يخفق في إقام ذلك النسيج الذي حاك اول خيوطه ، نسيج صلته مع « جانين » وما كان يعلقه على هذه الصلة من انقلاب عميق في نفسه وقيمه ونظراته الى العالم ... فاذا به يعود متنقلاً الى الجانب المحافظ من نفسه ، ويصنع لآراء امه ومجتمعه من حوله هاجراً « جانين » ، محاولاً ان يخلع على هذا العمل المحافظ وجهاً متحرراً إذ يفسر انصرافه عنها وعزوفه عن الزواج بها تفسيراً قومياً ، يستقيه ايضاً من آراء صديقه فؤاد . وبهذا يبرز الصراع الداخلي الذي تحدثنا عنه ، الصراع بين الروح المحافظة والروح المجددة الثابوتين في اعماق كل منا ، شديداً عنيفاً ، ولا سيما بعد ان تمدد افكار « فؤاد » التي تصالح ان تستمر ، عند الاقتضاء ، لتبرير بعض المواقف المحافظة .

ولعل خير ما في الرواية هو هذا التراجع والضعف والعودة الى القلق والحيرة ، بعد مراحل اوهمت بالثقل عليها . ولا نرى نحن في هذه العودة الى نقطة البداية نقية في الرواية وإنما نرى فيها احد جوانب القوة . ذلك ان النغم الاساسي الموجه للرواية ، في رأينا ، هو هذا القلق الذي يقبع فيه الشاب العربي ، وهذا التمس الفاشل الذي ينطاق اليه باحثاً عن معنى وجوده ، وهذه الواحات التي تترامى له في الطريق فيحسبها ماء ويظن انها ضالته ورسائله ، فاذا هي آل وسراب ... بل الاحن الأصيل الذي تردده نفس هذا الشاب هو ضرب من العود الأبدى Retour éternel إذ يبدأ ويغني . يشمر للبحث ويتوهم انه وصل ، ثم ما يلبث حتى يرى نفسه في مكانه لم يبرحه ، وفي نقطة البداية لم يفارقها ...

« بل الآن نبدأ يا امي » ، بهذا تنتهي الرواية !

وفي هذا القلق الذي يواجهه الشاب العربي البشري كلها والأمل كله ... انه يبني عن انه بدأ يسير في الطريق السوية . وان اعترافه بفراغه وجهله وفقدان رسالته هو بداية علمه ... انه اخذ يرى المشكلة واخذ يطرحها على بساط البحث ، وطرح المشكلة ، كما يقول « سيكون » نصف العلم ...
« لا يا عزيزي . فأنا احسب انك على خطأ . انهم لا يوحون بالفور .

وانت لن تنفر منهم اذا ادركت انهم شبان قلقون ، يبحثون عن انفسهم .
 اننا جميعاً نحن الشبان العرب ، ضائعون يبحثون عن ذاتهم . ولا بد ان
 نرتكب كثيراً من الحماقات قبل ان نجد ذاتنا » ص ٩٠ .
 « والتفت فيما حوله ، فترأت له ، في موجة بشرية ، وجوه كثيرة يعرفها ،
 صبحي ، عدنان ، زهير ، كامل ، ربيع ، صالح ، احمد ، سعيد ... بل
 فؤاد ... كلهم حوله وعشرات غيرهم عيون تطل منها ارواح ضائعة ، تبحث
 عن نفسها ، على مقاعد الجامعات وفي مقاهي الاحياء ، وبين اذرع النساء .
 وهو نفسه ، هذا الشيء الفارغ ، هذه الصدف الجوفاء ، هذا العود من القش ،
 أليس هو اضيعهم نفساً واشردم روحاً ؟ » ص ٩٠ . وتمجنا في هذه الجملة
 الاخيرة قول المؤلف : « بن وفؤاد » . فهو ايضاً شاب قلق ضائع ، وهو
 لا يملك بعد الروح الهادية التي ترشده ... غير انه اشد شعوراً من غيره
 بضرورة امتلاكها ... او ليس هذا هو واقع كثير من الشباب العرب الأقوياء :
 لديهم التطلع والتوق ، وليس لديهم تفاصيل هذا التطلع ومضمونه وطرق
 بلوغ ما فيه ؟ ان كل ما لفؤاد من فضل على بطل الرواية هو انه جملة يوكد
 نساؤه ويحبه وقلقه ، بعد ان كاد يشعر في قرب جانين او غيرها ، انه بلغ
 حال السكينة والاطمئنان التي لا تعرف الفواشي . او لم يخاطر لباله مرة ان
 يخاطب جانين قائلاً : « وما يعنينا ان نعرف من نحن ؟ ألا يكفيننا اننا
 كائنات نعيش أحياناً بالآخر ؟ ألا تشعرون انك بتحقيقين الآن غاية وجودي ؟
 وانا كذلك ؟ لماذا تبعدين يا جانين ؟ لماذا تستشرفين الآفاق القاصية ؟ »

وهذا الاستشراف للآفاق القاصية هو الذي كان يحرقه في الواقع ، وما اتهم
 به جانين الا لأنه كان يصارعه في نفسه ، ثم جاء فؤاد فوطد اركانها ...
 وهكذا يعود الفتى من ديار القرب وهو فاق كما كان ، بل أشد قلقاً
 ونسأولاً ... وكل ما في الأمر أن موضوع قلقه قد اتضح اكثر ، وأنه
 أصبح أغنى وأوجع ... انه يدرك الآن معنى المرأة وشأنها في تفتيح النفس ؛
 ولكنه يدرك ما لم يكن يدركه من قبل تماماً ، وهو ان هذه التجربة ليست
 الا جزءاً من تجربة اوسع ، وانها لا تحمل قيمة في ذاتها ، بل تستمد قيمتها
 مما تثيره في النفس من رغبة في البحث وتوق الى اكتشاف معنى الذات والوجود ...
 وهل ثمة اقدر على اكتشاف معنى الحياة من احتكاك النفوس وامتزاج الأنا
 بالغير؟ وهل ينكر الدور الذي يلعبه الشخص الآخر في تكوين كيان الفرد
 وشعوره بشخصيته ؟

وبعد ، لقد آثرنا الوقوف عند جانب في الرواية نمتقد انه جوهرها
 ومحورها . وهذا فاتنا ان نذكر جوانب اخرى ، بعضها يتصل ببراعة
 الأداء والفن القصصي ، وبعضها يتصل بالقدرة على تحليل الأحاسيس النفسية
 الدقيقة .. والمؤلف في هذا كله موفق . غير ان توفيقه لم ييسر له الا لأنه
 قبض على مشكلة حية ، ووصف شيئاً عاناه ، فكان هذا الشيء الذي عاناه
 رائد اسلوبه وفنه ، وصانغ عباراته واشاراته ...

دمشق عبدالله عبدالدايم

مقال الأستاذ عيسى الساعوري

واذن فليس من الممكن أن يمر القارئ بما يكتبه سهيل ادريس اليوم ،
 كما كان يمر بما كان يكتبه سهيل القديم من أقاصيص جنسية ، وما كان
 يصوغه من دمي جميلة لم يكن لها هدف أو رسالة؛ وانما أصبح من حقنا الآن
 اذا رأينا مؤلفاته وكتاباته تنسجم مع دعواته الجديدة ، أن نهز يده بجرارة ،
 ونقول له : « امض على بركة الله وتوفيقه ، ونحن كلنا معك » ، واذا
 رأينا يزيغ عن نهجها ، أن نلحق به ونهز كفته بعنف ونقول له : « تعال
 يا عم ! ان الطريق التي تسلكها بنا الآن غير الطريق التي دعوتنا اليها ،
 فأني طريقك الصواب ؟ » !

* * *

لقد اصدر سهيل ادريس اخيراً رواية كبيرة ، تقع في نحو ثلاثمائة
 صفحة ، دعاها باسم « الحي اللاتيني » ، حاول ان يرسم فيها صورة - من
 اختباراته الواقعية - لحياة الطلاب العرب في ما يسمونها « مدينة النور » .
 ومن الاخلاص للادب ان ننظر في هذه الرواية نظرة دراسة ونقد ،
 لا تعرف المجاملة لغير الحق ومبدأ الرسالة الأدبية . ولعمدونا الدكتور سهيل
 اذا لم يتفق نظرنا ونظره ، فهو الذي دعانا الى ان نقبس الاشياء بمقاييس
 الحقيقة ، لا بمقاييس المجاملة .

إن للنظر في عمل فني روائي - نظرة دراسة ونقد - اعتبارات متعددة ،
 اهمها ، في رأينا :

- ١ - الناحية الفنية : من حيث التصرف في خلق السياق والحوار
 والحوادث - وتوجيهها ببراعة ومقدرة .
- ٢ - التسلسل والانسجام ، وتأثير العبارة وجمالها وسلاستها ، وبراعة الحوار .
- ٣ - المواقف التصويرية والتحليلية والتأملية ، ومواقف الصراع العقلي
 والنفسي ، نتيجة الانفعالات المختلفة .

قيل ان يذهب سهيل ادريس الى فرنسا ، لنيل شهادة الدكتوراه في
 الآداب من جامعة السوربون ، كان قد اصدر ثلاث مجموعات قصصية ، هي :
 (أشواق - نيران وثلوج - كلبن نساء) ، وكنت اتابع أقاصيصه وكتاباتاته
 الأدبية في (الأدب) و (بيروت المساء) وغيرها من الصحف اللبنانية ،
 فكنت اتلذذ بطلاوتها ورساقه صياغتها ، واشعر باعجاب بوهبته القصصية ،
 وارى انه في هذا الفن الأدبي أديب موهوب ، يضع قدميه في الساحة بثبات ،
 ويملن عن نفسه بجرارة .

ولكن سهيل ادريس ذاك لم يكن ذا رسالة ، ولا كان يكتب لهدف .
 فكنا نتقبل منه تلك الدمي الجميلة التي يصوغها ويتلذذ بابداعها ، فنمضي نحن
 ايضاً نشاركه في التلذذ بجمالها وحسن صياغتها . وكانت كلها دمي تعبر عن دعوة
 الجنس الفائزة في صدره ، وفي صدر كل شاب وفتاة في فورة الشباب المقتلم .
 غير ان سهيل ادريس الآن شخص آخر جديد ، غير الذي عرفناه في
 السابق . لقد عاد من فرنسا يحمل شهادة الدكتوراه في الآداب . والى هنا
 ليس في الأمر شيء ذو بال ، فالشهادة لا تكفي وحدها لتغيير قيم الاشخاص
 واعتباراتهم . ولكن المهم في الأمر انه عاد يحمل شعوراً جديداً « بأنه
 انسان جديد ، يعرف الذي يريد ، ويسعى اليه بثقة وإيمان ... وانه يدعو
 الى حياة صراع يعيشها في بلاده .. وأنه يبدأ حياة النضال والمقاومة » من
 أجل امته العربية . (ص ٢٩٤ - الحي اللاتيني) .

لقد عاد يحمل رسالة ، ويدعو الى أهداف . واشترك لذلك في انشاء مجلة
 أدبية كبرى تحمل رسالته ، وتبث اهدافه التي تلخص في ما دعاه (بالالتزام
 في الادب) ، الذي يقضي بتكريس الأدب والنشاط الفكري كله لخدمة
 الحياة العربية الجديدة ، والمجتمع العربي الجديد . وهي دعوة جميلة ونبيلة ،
 نباركها ونبارك معها كل من يحملها ويدعو اليها باخلاص .

٤ - الأشخاص، واعمالهم وسلوكهم وشخصياتهم، ونوع تأثيرهم ومداه في نفس القارئ، وبالتالي في سلوك المجتمع .

٥ - الحوادث والانفعالات، وأهميتها واثرها .

٦ - الأفكار والمبادئ والأهداف التي تبرز في الرواية، وتعين اتجاه صاحبها ومذهبها في الادب والفن والحياة .

والنصف الاول من هذه الاعتبارات الستة يدخل في دائرة الاطار الفني، الذي يضي على الرواية طلاوة تسيغها في نفس القارئ، وتنجب اليه المضي في مطالعتها . وهي في الحقيقة المظاهر الشكلية للرواية، بينما تتوقف روعة الرواية او تفاهتها على الاعتبارات الثلاثة الأخيرة، في الدرجة الأولى . اما الاعتبارات الثلاثة الأولى، فقد كان سهيل موفقاً فيها وبارعاً الى حد بعيد، منذ ان كان يصدر مجموعاته الصغيرة الاولى . وهي براعة فنية يستحق عليها الاعجاب الكبير .

وقارئ (الحلي اللاتيني) لن يتالك نفسه من الاعجاب الشديد بالموافق التصويرية والتأملية، ومواقف الصراع النفسي في الرواية، كالذي في الفصل الثامن - ص ٧٨ الى ٨٦ - ومواقف اخرى متعددة؛ وكذلك بعبارتها وانسجامها وحوارها، وبالقدرة القصصية التي يملك سهيل ناصيتها، ويتصرف بها ببراعة كبيرة . ومن العيب ان نغضب الأمثلة على ذلك، او نعين الصفحات، فالمواقف الجميلة البارة والشديدة التأثير، كثيرة فيها، ولعل من اشدها تأثيراً : رسائل جانين، ومذكراتها، وصراعه النفسي بمد الرسالة القاتلة التي ارساها اليها من بيروت بطل الرواية الأول .

أما الاعتبارات الثلاثة الأخيرة، فان مآخذنا عليها - في رواية الحلي اللاتيني - غير قليلة، وفي بعضها ما يستحق النقاش الشديد الطويل . ولذلك نجد أنفسنا مضطرين الى تفصيل الحديث فيها بغير قابل من الاسباب، وان يكن هذا الاسباب سيرغمننا على ان نترك بعض الجوانب التي كنا نود ان نتعرض لها في هذه الدراسة، واهمها جانبان : الأول : موقفه، او مشاعره التي عبر عنها في الصفحتين (٨٨ و ٨٩) وغيرها، نحو الطلبة العرب في باريس . والثاني : المآخذ التي اخذها على الادب العربي الحديث، واعتبرها نقصاً فيه، كالذي ذكره في الصفحة ٩٤، وغيرها . فهذان الجانبان - على اهميتهما - نراهما اقل شأناً من الجوانب الاخرى التي سنتعرض لها فيما يلي :

* * *

ان اهم ما يلفت الانتباه في الرواية : شخصية بطلها الأول الذي دار الحديث عليه في كل الرواية بضمير الغائب . تم يليه البطل (جانين مونتر) وهي مع البطل الموضوع الأهم في الرواية . ثم تجيء شخصية الطالب السوري (فؤاد)، كما تجيء ام بطل الرواية - وحيداً لو كان لهذا البطل اسم لينينا عن وصفه بالبطلية - وهناك شخصيات اخرى عديدة تافهة، من اهمها شخصيات (صبحي) الطالب البارع في اقتناص النساء . و (عدنان) الطالب الذي يحرص على الصلاة والصوم وهو في قلب باريس؛ و (ناهدة) التي وقف عليها المؤلف الفصل الثامن كله، بمشاعر الحب والاعجاب والحنين المحرق؛ ثم الفصل الاول من القسم الثالث - اكثر من نصفه - بمشاعر الكراهية والاستغراب والنفور، بدون سب حقيقي... وجعل نهايتها معه الخذلان المؤلم، بدون ذنب منها، الا انها لم تستطع ان تكون له ما كانت له فتيات باريس... وهناك ايضاً (فرانسواز) فتاة صديقه فؤاد؛ وفتيات وقتيان آخرون في باريس خاصة .

واما المبادئ والحوادث والانفعالات، فكثيرة ومتنوعة في الرواية؛ ولكن لحصة المرأة - الاستمتاع بالمرأة، ومطاردتها، والتفكير بها -

ما لا يقل عن تسعين بالمئة من مجموع حوادث الرواية وانفعالاتها وافكارها . وهذا ما سنعرض له بالمناقشة والتحليل فيما يلي :

* * *

ان القارئ يجد بين شخصيات الرواية البارزة، شخصية واحدة تستأثر بحبه واعجابها كليهما. تلك هي شخصية الطالب السوري (فؤاد)؛ ذلك الذي عاش في باريس بأخلاق « العربي الشريف »، الواعي لمبادئه الاخلاقية، وواجباته الوطنية والقومية كل الوعي، بعكس فتى الرواية الاول تماماً، وبالعكس سائر رفاقه الآخرين .

والقارئ يكبر فؤاد كل الاكابر حين يرى انه قد صارح فتاته الفرنسية (فرانسواز) بقوله : « اننا مدعوون في المستقبل الى مواجهة كثير من قضايانا القومية التي لا تعني احداً سوانا . وانا لا اعتقد ان زوجة اجنبية تستطيع ان تعين زوجها في مماناة مثل هذه القضايا . اني اريد ان تكون زوجتي رفيقة حياتي حقاً، بكل ما في الرفقة من معنى . ولئن تزوجت يوماً، فلن اتزوج الفتاة العربية. » (١٦٦ ، ١٦٧) . وقد رضيت هي بصدافته مع عليها بهذا . ثم يرى القارئ بعد ذلك ان « نزاعاً ضارباً قد نشب بين فرانسواز وفؤاد حول السياسة الفرنسية في افريقيا الشمالية، فرأيا من الخير ان يفترقا، وان يضحيا حبيهما، او ما كان يحسبانه حباً، من اجل عقيدتهما. » (ص ٢٦٩) .

يرى القارئ ذلك فلا يستطيع ان يحبس اعجاباه العظيم بهذه النهاية الرائعة لملاقات فؤاد بفتاته الفرنسية؛ ولا يستطيع ألا ان يتولى حباً لفؤاد، ويعتبره الطالب العربي المثالي الوحيد في (الحلي اللاتيني)، بينما يرى سائر الطلبة الباقيين اقزاماً خاماء تاهين .

والحقيقة أن المؤلف الذي استطاع ان يمقد كل هذا الحب لفؤاد في نفس القارئ، ويجعل منه الصورة الجميلة الوحيدة في الرواية كلها، لم يستطع أن يجعل القارئ يشعر نحو فتى الرواية الاول بغير الاستغراب والنفور، لأنه جعل منه طالباً ضيف الرجولة، جباناً، تافهاً في مبادئه، مجرداً من النبيل الخلفي، ومن صحو الضمير القومي، حتى إنه هو نفسه - فتى الرواية - لا يتالك عن ان يدعو نفسه « بالنذل »، و « الجبان » في الصفحة (٢٤٦) . وفي القسم الأخير من الرواية يشعر القارئ نحو بالرائة والشفقة والسخرية، لأنه لم يستطع أن يكون رجلاً قط في مساق الرواية كلها .

ان فتى الرواية انما يغادر الشرق الى باريس تحت ستار الدراسة في بعثة على حساب وزارة المعارف اللبنانية؛ ولكنه يعترف باصرار، وفي مواطن متعددة من الرواية، بأنه انما يهرب من الكبت والحرمات الجنبية، لأجل البحث عن المرأة في باريس... لأجل المرأة...! فما أتفه الغاية، وما أحقر القصد :

« تبحث عنها... عن المرأة... تلك هي الحقيقة التي تنساها، بل تتجاهلها . لقد أتيت الى باريس من أجلها... » (ص ٢٣) . ثم في الصفحة (٢٦) وما يليها : « أجل، شركت ذلك لم بغرك بالهروب منه سوى حبال المرأة الغربية، سوى اخفاء المرأة الشرقية في حياتك، لانا ان تطل في بسمة لا تزيد الحرمان الا حرماناً... وقد امسك هذا الحبال بذهنك، فقاده الى البعيد البعيد الذي خافت اطارته في وجدانك فصول من الكتب، او صور من مغامرات صديق... واصبحت يوماً فاذا كيانك كله ينزع الى تقرب هذا البعيد، او الانتقال اليه، على وجه التدميق . »

ثم تبحث عن المرأة التي يريد هذا الفتى المحروم، والتي لأجلها سافر الى الغرب هرباً من وقبة الكبت والحرمات... فاذا هي تطل عليه اولاً بصورة

مرغريت وليبيان ... وهما فتاتان داعرتان ، يفرهما بجملة وكأس شراب ، وينحر فضيلته معها ، فيشعر اذ ذلك بأنه يعيش حراً كما يشاء ... « وهذا الفرار الى باريس ، اما كانت تدفع اليه رغبة في التحرر من ذلك الجو الضيق ، وسمي الى سوق حياة خاصة يشعر انها له ، انها حياة حميمة لا تعني احداً سواها » (ص ١٣٥)
و « الحياة الحميمة » هي الحياة الانطلاقية مع المرأة ... ان « يريد المرأة ليعصرها عصراً ، ثم يلفظها كالنواة » (ص ٤٣) .

والقارئ يفي من اول الكتاب الى الصفحة ٧٧ منه ، فلا يجد الاركضاً مجنوناً محمواً وراء المرأة : من فتاة السبنا التي وعدته ثم اخلت الوعد ، الى مرغريت ، فالى ليليان ، ثم ... الى جانين مونترو . ويبرر فتى الرواية هذا المسلك في الصفحة (٧٢) بقوله : « كان على يقين من ان صداقته لصبحي ستصبح صداقة صحيحة خالصة (١) ، يوم يلتقي مثله فتاة تطلق مشاعره الحبيسة من عقلاها ، وترد احاسيسه الى موضعها الطبيعي من قلبه وروحه » . وهو يؤكد في مكان آخر ان « الرجال في الشرق تموت مواهبهم وامكانياتهم بسبب ما يعانونه من حرمانهم من المرأة » .
وماذا بعد ؟

ليس غريباً ان نطيل الحديث عن المرأة هنا ، فحديث المرأة هو كل الكتاب ، الى الصفحات الأخيرة جداً منه ، حتى بعد ان يصحو الضمير القومي في فتى الرواية ، بعد صدمته العاطفية العنيفة مع فتاته . حتى ان القارئ حيناً يصل الى حديث الوطنية وصحو الضمير في فتى الرواية - من الصفحة ٢٦٣ فصاعداً - يشعر شعوراً عميقاً بأن هذا الحديث قد حشر في آخر الرواية حشراً ناشراً ، وان صحو الضمير لم يجيء الا بطريقة مفتعلة ليعوض به فتى الرواية عن « حرمانه » الجديد القاسي من المرأة في الغرب ، وليعطي به أثر الصدمة العاطفية في نفسه ، ثم ليحول شعور القارئ نحوه من الاحتقار الى الاعجاب ، فلم يوفق ، ولم يفز بغير الشفقة والسخرية ، فقد جاء حديثه هناك بشكل غير طبيعي ، وخال من الحرارة والصدق والتدفق ، ككيفية فصول الكتاب .

فات « الصدمة العاطفية » ، وحقيقة هذه الصدمة هي من العوامل التي تجعل القارئ ينفر كل النفور من جين فتى الرواية ونذالته ، كما ينفر هو نفسه من نفسه ؛ وكما ينقم هو نفسه على نفسه حين يثور في داخله الصراع العاطفي ، على اثر الرسالة التي حطم بها رجولته ، كما حطم بها حياة فتاته البريئة .
لقد أحب في باريس فتاة اسمها (جانين مونترو) ، استسلمت اليه بثقة مطلقة ، وكشفت له الستار عن حياتها الماضية وأخلصت له كل الاخلاص . وفي علاقته بها يقول في الصفحة (١٥٩) وما بعدها :

[وكان الليل مملكتها الانيرة ، يركن الى ليتأذنا فيه بالدفء والظلام والحب ، الحب ، هذا الذي لم يعرف من قبل الا احد شطريه ، فاما النشوة الروحية وحدها ، وإما اللذة الجسدية وحدها ، بل هو لم يعرف اي الشطرين الا في اسوأ اشكاله : إما كبت وانغلاق وتأكل ، وإما اناثية وجوانية وانحطاط . ولم يكن يتصور ان يوسع انسان ان يدرك ، الى جانب انثى ، اللذتين كليهما ، كما ادركها الى جانب جانين ... وكانت هي من رهافة الانوثة بحيث كانت تعني كيف تعالج الاخذ والعطاء ، وكيف تدفع الضجر والملل بتقاييب احدى اللذتين في الوقت المناسب ... وكان قد مضى عليها اربعة ايام وهما في عالم شبه معزول ، اذ ابقظته هي ذات ساعة : - لقد آن لنا ان نعود الى عالم الناس ، الى اشياتنا اليومية الصغيرة ! ان المؤسف اننا حيوانات اجتماعية !]

(١) ما انقل هذه الصادات الست المتلاحقة .

وتضي العلاقات بينهما على هذه الوتيرة شهوراً طويلة ، يعود بعدها الفتى الى بيروت في اجازة الصيف لزيارة اهل . وهناك يلتقي منها رسائل متعددة ، بينها رسالة تذكر فيها ان في احشائها جنيناً منه لا تعرف ماذا تفعل به ، وهي تنتظر مشورته ، لأن ليس من حقها ان تصرف بأمره بدون استشارة شريكها فيه ... وتطلع امه على الرسالة قبل وصولها اليه ... وبتأثير عوامل الخجل من امه ، والضعف امام عتابها ... لم يسه الا ان يجيب على الرسالة برسالة قصيرة ، تبرأ الرجولة والاخلاق من كل حرف فيها : إذ يتهم فتاته ، التي يعرف براعتها حق المعرفة ، بأن الجنين ليس ابنه ... ويقول : [اما علاقتنا نحن الاثنين ، فأحسبك لا تشكين بانها كانت بريئة ! ...]

كانت بريئة ! وماذا يعني الوصف المتقدم كله اذا كانت « النشوة الروحية » و « اللذة الجسدية » والصبر الواحد الذي يضمهما ليالي متلاحقة ... كلها علاقات بريئة !

والقارئ يجد ان الصراع النفسي الذي تلا تلك الرسالة ، والاعذار والمبررات التي كان فتى الرواية يحاول ان يقنع بها نفسه كذباً واهياً ، وتسميته نفسه بالجنان والنذل ، ثم عودته الى باريس قبل الموعد ، وبمخبة عن جانين ، ثم التقائه بها في حالتها السيئة ، وعرضه عليها الزواج تكفيراً عن لثمة نحوها ؛ كل ذلك اصبح بارداً لا قيمة له ، إذ فقد كل حرارته ، بعد ان سح الفتى لنفسه بكتابة تلك الرسالة الحقيرة ، وهو يعلم حق العلم انه يخدع نفسه ويخدع ضميره بها . ويزداد احتقار القارئ للفتى إذ يقرأ ردّ جانين على رسالته تلك ، وهو : [شكراً ؛ سأواجه مصيري بشجاعة - جانين] (ص ٢٥٣) - ثم حين يراها ترد على عرضه الزواج عليها بأن تهرب من وجهه ، وتكتب اليه رسالة تفيض بالنبل وكبر القلب وسمو الروح ، تقول له فيها : [إن دنياك التي تحلم بها ، اوسع واعظم من ان يستطيع الثبات فيها شخص ضيف مثلي . انك الآن تبدأ النضال ، اما انا فقد فرغت منه ، ومات حس النضال في نفسي ... فامض قدماً يا حبيبي ، ولا تلتفت الى ما وراءك ... دعني هنا اتابع طريقي حتى النهاية : وعد انت يا حبيبي العربي الى شرق البعيد الذي ينتظرك ، ويحتاج الى شبابك ونضالك] (٢٩٤) .

صفات متناقضة : نبل ووفاء وسمو في الفتاة الغربية ، وغدر وجبن وحقارة في الفتى الشرقي ... ذلك ما تقدمه لنا رواية (الحي اللاتيني) ، او على الأصح ذلك ما يخرج به القارئ المنعم في رواية (الحي اللاتيني) . اما حياة الطلبة العرب هناك ، واما حياة الحي اللاتيني نفسه ، فتبي تافه جداً ، بمكس ما كان يتوقمه القارئ من الرواية ، ومن اختبارات المؤلف الواقعية الطويلة في باريس .

* * *

الى هنا ولم تنته بعد ، فما زال في الرواية موضوع يستوجب النقاش الطويل ؛ ذلك هو رأي المؤلف في المرأة الشرقية ، ودعوته الصريحة المتحمسة الى (هدم الجدار الذي يفصل بينها وبين الرجل) ، لكي (تطلق مشاعره الحبيسة من عقلاها ، وترد احاسيسه الى موضعها الطبيعي) ثم لكي تتفتح مواهبه وامكانياته المكبوتة ...

ان الفتى الذي هرب من الحرمان والكبت الى باريس لأجل المرأة ، ارانا في روايته انه قد وجد هناك المرأة التي يبحث عنها ، وانه عاش معها « الحياة الحميمة » التي ارادها . ولكننا لم نجد في المرأة التي وجدها هناك سوى وسيلة استمتاع عابر ، مباحة لكل عابر سبيل ، فن مرغريت ، الى ليليان ، ثم الى جانين نفسها - الحميمة الويفة - ، فالى فرانسواز - فتاة صديقه فؤاد - ...

- التتمة على الصفحة ٧٩ -

«الحي اللاتيني» أيضاً...

التتمة من الصفحة ٥٠ :

ترى ابنة واحدة من هؤلاء يريد المؤلف ان يجعل من بنات بلاده العربيات ، شبهات بها ، يقدمن التمتع (الجندية والروحية) للشبان ، وهن يملن انهن اشباح عابرة في حياتهم ، وانه اشباح عابرة في حياتهن؟! وانهن سيصبحن بدم (فتيات ضائعات) كما قالت جانين عن نفسها - 1?

وبصراحة ... ان في جامعات بيروت الوقت من الشبان الذين يبحثون عن التمتع نفسها التي كان فتى (الحي اللاتيني) واصحابه يبحثون عنها ، فهل يرضى المؤلف ان تكون فتيات بيروت هم ، ما كانت له ولصديقه فؤاد خليلتهما جانين وهرانسواز ، او ما كان الفتيات الأخريات لسامي ، وصبحي ، واحد ، وغيرهم من رفقه هناك؟! او هذا يستطيع طلاب الجامعات في بيروت مثلاً ان يكشف كل منهم - وهو يستمتع بأجساد الفتيات ، او باحسادهن وارواحهن ... - عن جوانب عقريته الضائعة?!

و (ناهدة) التي كرس لها من روايته هلاً كما حين ورقة وحب ، حين حمل الفتى يذهل عن نفسه وعن دينه وهو واقف في نفق المترو يستمع الى عازف الاكورديون : اليس موقف هذا الفتى نفسه منها عند عودته الاولى الى بيروت ، مدعاة الى كثير من الاستغراب والانتقاد!?

لقد رأى فيها اذ ذلك (الفئاة الشرفية ، الفئاة العريضة ، تتراجع امام الشاب .. اي شاب ، عربياً كان ام اجنبياً امام (الرجل) ، وعيناها طاهتتان بأخوف منه . روايتي تجمعت اجيالاً في هذه الخطوة ... وقد ظل برهة طويلة ينظر الى هدهة فلا يراها هي . ولنا يرى آلاء وآلاء من هاتيك العربيات المتناثرات في ارجاء الوطن العربي الكبير ، يقيم الحذر بينهن وبين الرجل حواجز صفيقة يستحيل معها كل تعاون متمر ، وكل مشاركة مجذبة) (س ٢٣٤) .

والقارىء يتساءل بعد هذا الحديث الصريح : ترى اي تعاون متمر ، واه مشاركة مجذبة كانت بين فتى الرواية وجانين ، او بينه وبين مرعريت وليبان في باريس ، عبر المشاركة في الرذيلة والخرقة ؟ وهل كان ينتظر ان تصفح عينا الفئاة العربية بالاحسان الى الشاب اي شاب ، عربياً كان ام اجنبياً . بدلاً من ان تصفعا بأخوف والحذر من مثل المنصر الذي اوقع به الفئاة المسكينة البريئة (جانين مونرو) ، تلك التي يذكرها في مجال المقابلة بينها وبين هدهة (في الصفحة ٢٢٥) يقول :

[ولكن جانين ، الم يجب روحها عبر حدها ، وحدها عبر روحها ؟ تلك كانت تعرف قيمة الروح لأنها كانت تعرف قيمة الجسد! ...] ومع ذلك هو لم يتخذ منها اكثر من حانية لتتمة قصيرة عابرة!!

ووالدة فتى الرواية .. تلك الوالدة المختصة في امومتها ، والعامنة لهادة ابنها ، البس من المؤلف جداً ان يحاول الفتى تلويحها استجابة لدعوتها الجديدة ، او تمسحاً مع رغباته الجنسية العابرة ، التي كانت تود لو لم يستجب لها الى الحد الذي وصل اليه مع جانين?!

الذي تزوجوه ان لا تكون هذه النظرة الى المرأة جزءاً من رسالة الأديب الحديدي في سهيل ادريس ، التي عاد يحملها الى امته العربية ؛ فهي ليست نظرة نظيفة ، بل ريب ، ولا هي رسالة انهاض واسعاد لهذا الجزء الحي من الامة ومن الانسانية ، الذي هو المرأة .

ان المرأة التي تريد لها ان تشارك الرجل في نهضة امتنا العربية ، لا يمكن

ان ترضى لها بان تكون وسيلة استمتاع عابر (لرحل) - لكل شاب ، عربياً كان ام اجنبياً ، ولا يجوز ان ترضى لها بتل هذه الوظيفة الحقةرة ، ولكن لها وظيفة اسمى ، هي ان تحقق الرجل الناضج ، في البيت الصالح . والذي يقدر الامومة في المرأة ، لا يرمى لامومتها المقدسة بأن تقضي لانات اهوى لعابري السبيل ، بدون امل في ان تبني البيت الذي نحن اليه كل امرأة ، ويحتاج اليه المجتمع الصحيح .

وبعد فاذا كانت رواية (الحي اللاتيني) ناجحة جداً من حيث الفن الروائي ، فانها من حيث الرسالة الادبية الاحتجاجية مجهود منحرف ، فهي لا تزيد على كونها تمبيراً عن نزعات جنسية غير مقيمة . حتى نغلب على ظن القارىء ان المؤلف إنما وضعها ليروض عن النقص الأدبي الذي انتقده في الصفحة (٩٤) من روايته : في مجال التعلق على مسرحية (الكوخ الصغير لأندريه روسين) التي قل فيها صديقه فؤاد : (لا ريب في ان هذه المسرحية لا اخلاقية ؛ هي لا تخلف لدى المشاهد اي استنكار لهيئة الزوجية التي يدور حولها الموضوع) ، فيجيب فتى الرواية على ذلك قائلاً : (البس ادباً ومقصدين في هذه الناجية ؟ الاتراهم يتعادون في آتروهم من إثارة كثير من المشكلات التي تمس حياتنا ، خشية من ثورة حماة التقاليد ؟) (س ٩٤) .

لقد كانت رواية (الحي اللاتيني) (صورة حياة) ، ولكنها لا يمكن ان تكون (رسالة حياة) للمجتمع العربي الحديدي الذي يريد قوياً خائفاً متمسكاً . فرسالة الادب غير النزعات الخسبية العابرة المتعنتة من القيود . وانا اذا كنت معجبا بتوجه سهيل ادريس القصصية ، ونني لأشعر باننا الاسف اذا ارى هذه المهمة الجميلة تنصرف الى غير وجهتها الصحيحة ، على هذا الشكل ، وبعده ما يدعو اليه سهيل في بحثة (الآداب) من وجوب صرف النشاط الفكري خدمة المجتمع العربي ، ومعالجة نواحي النقص فيه ، لتحريره من العيوب والمساويء التي تحوّل دون نهضته وعزته .

عنان عيسى الناعوري

كنوز القصص الإنسانية العالمية

سلسلة جديدة تشرف الفتي العربي الى سواج الآداب القصصية

القصصية ذات النزعة الإنسانية

يجزدها ومنها إلى العربية

منير البعلبكي

صدر منها	ق . ل
١ - كوخ العم توم (النضمة الثانية)	فهريت ستاو ٢٠٠
٢ - اسرة آرتة مونوف (الاول)	لكسي غوركي ٣٠٠
٣ - « « (الثاني)	لكسي غوركي ٢٥٠
٤ - المواطن توم بين (الاول)	هاوارد فاست ١٥٠
٥ - المواطن توم بين (الثاني)	« « ٢٠٠
٦ - ستة وعشرون رجلاً وقتاة واحدة	لكسي غوركي ١٠٠
٧ - حكايات من ايطالية	لكسي غوركي ١٠٠
٨ - شارع السردين الملعب	لكسي غوركي ١٥٧